غريبان على الشاطئ الآخر

غريبان على الشاطئ الآخر

رواية

عبد الإله عبد القادر

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: فراس أحمد علي

لوحة الغلاف للفنان حسن عبد علوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٥٣٣٧

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 538 – 4

غريبان على الشاطئ الآخر

روايـة

عبد الإله عبد القادر

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد القادر، عبد الإله

غريبان على الشاطئ الآخر: رواية/ عبد الإله عبد القادر.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٥٣٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٥٣٣٧ / ٢٠١٩

سيدتي..

لصمت البحر.. وثورته..

للنخلة واللوز الأخضر..

ولعينيك..

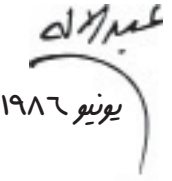

يونيو ١٩٨٦

أيام ما قبل العشــق

رجل مثل كل الناس، بدأ عقده الخامس أو سيبدأ، كل شيء في حياته روتين، الاستيقاظ صباحاً، الوصول إلى العمل في موعده والخروج منه، أحاديثه.. زياراته.. وأصدقاؤه.. وقراءاته.. كلها تدور وفق روتين محسوب.. بل لم تعد أحاسيسه جياشة كما كانت، ماتت طموحاته، لم يعد يحلم، ليس مهملاً لمظهره، ولكنه لا يعتني كثيراً بشكله، كلما ألحت عليه زوجته، أن يتأنق، يبتسم ساخراً ويردد:

- راحت أيامنا يا أم علي.

ولكن أم علي لا ترضى بإجابته خوفاً من أن تكشف عمرها الذي تجاوز الأربعين وقضته في تربية الأطفال والتفنن في الطبخ، والتمادي في أعمال البيت إلى درجة إهمال كثير من حاجاتها الخاصة وزينتها، بل وحتى خلوتها مع زوجها، وأصبح همّ الأطفال أكبر من الخوف على الزوج،

بل لم تفكر ذات يوم في أن أي امرأة يمكن أن تنظر إلى أبي علي نظرة إعجاب، أو تحاول أن تسرقه، فليس فيه ما يشـجع على المجازفة كما تعتقد، ولا هو سيفكر في أن يبتعد عنها وعن البيت، خاصة أنه مقيّد بأكثر من قيد، وكان يردد دائماً بسخرية موجعة:

– الزوج بعد خمس وعشرين عاماً من الزواج سـجين مؤبد لا يعرف الحرية!.. ويتذكر قول زميله فيتمتم:

– حياة محبطة.. ما عادت جديـرة بالاهتمام، إحباطات في العمل وفي البيت وفي الوطن.

– بل وحتى في العلاقات الزوجية.

وما إن تسمع أم علي هذه الجملة حتى تبدأ موالها في تعداد التضحيات وقبولها أن تكون زوجة له وتفانيها في بناء بيته وخدمته وغسـل أوسـاخه وأوساخ أطفاله و... و.... إلى أن تقول بشيء من التعالي غير المبرر:

– لقد جعلتك أباً.. ولولاي لكنت الآن في الشارع.

ورغم عدم قناعته بكل ما تقول يصمت على مضض ويسخر من نفسه ويتمتم:

– ترى أين ذهبت دراستي وتعليمي وثقافتي يا أم علي؟..

وهكذا عاش أبو علي في بحيرة آسنة من الروتين، يتحرك مثل آلة أو ساعة سويسرية، أبعد مسافة من الحلم يقطعها مع كتاب وحين يعود إلى قلمه، يحاول تسجيل بعضٍ من يومياته، ويظل يبحث عن ندوة أو قراءة شعرية أو عرض غنائي أو مسرحي يكسر به رتابة أيامه، ويجدد بعضاً من خلايا جسمه التي ركدت هي الآخرى بركود حياته، وحتى في هذه الحالة يحافظ على مواعيد هذه الأمسيات فيحضر في الموعد ويعود إلى بيته بعد انتهائها مباشرة، ليسهر أمام جهاز التلفاز لاعناً سخف وسطحية برامجه بينما تشخر أم علي وهي مستلقية على الأريكة قبالة التلفاز لا تعرف من البرنامج سوى بدايته وأحياناً نهايته، لكنها تصرّ على مشاهدة كل فيلم السهرة، بل تكابر بذلك وتصرخ في وجهه كلما طلب منها أن تقوم لتنام في فراشها بدلاً من هذه النومة القلقة.

في الصباح يبدأ يومه، يستيقظ في الوقت كمنبه، يدخل الحمام، يشرب الشاي وهو يطالع العناوين الكبيرة في الجريدة ثم يسارع إلى مكان عمله، وبآلية متناهية ودقيقة يؤدي واجبه الوظيفي ثم يعود ظهراً.. يأكل دون أن يتكلم.. وتتسلمه أم علي:

– ما بالك يا رجل.. نفسي أن تتحدث ذات يوم عن عملك.. عما شاهدته، عن قصة، حادثة، نكتة..

فيتمتم أبو علي بكلمات غير مفهومة، ويكمل أكله مسارعاً إلى

جريدته ليتمم ما بدأه صباحاً، تبدأ هي في غسيل الصحون وتردد كلامها كل يوم..

– لقد زهقت من هذه الحياة.. طبخ وتنظيف.. وسوق.. و..

ثم تذكّره وقد أغاظها باحتضان الجريدة وهو يقرأ التفاصيل التي ظلت عالقة في ذهنه عند مطالعة عناوين الصباح.. وتدنو منه، صارخة بصوت اعتاده منذ أكثر من ربع قرن:

– آه لـو تركت الجريدة يومـاً واحداً، يا رجل التفـت إلينا، تكلم مع أولادك وبناتك أو معي، الجريدة والكتاب ربيا علّة في صدري..

ويبقـى أبو علي كالبليد لا يجيب.. بماذا يرد عليها وقد أغرقته بكلامها الذي اعتاده، وكان قد قرر منذ سنوات طويلة ألا يرد عليها وأن يواصل قراءة الجريدة وإن لم يسـتطع أحياناً أن يركز على كلماتها نتيجة تشويش أم علي عليه، وأحياناً وفجأة ينفجر غاضباً في وجهها:

– حتى هذه الحياة تحسـدينني عليها، اتركيني لوحدتي ولقدري، ماذا بقي سوى الجريدة والكتاب؟..

وترد عليه:

– ويـا ليتها تجلب الغنى، لا فائـدة من هذه الجرائد والكتب إلا زيادة أوساخ البيت وقاذوراته، يا رجل انظر إلى الناس، لا يضيعون وقتهم بهذا

الكلام "الفارغ".. كل الناس أصبحوا أغنياءً.. إلا أنت تظل متعلقاً بآرائك الخيالية وكتبك وجريدتك.

– ولكني أختلف عن الناس.. لست مثلهم يا امرأة.. أكثرهم لصوص ودجالون، فتقاطعه:

– إلا أنت الشريف الوحيد.. يا ليتك أصبحت دجالاً ومليونيراً.. على الأقل لأحسست بطعم الحياة ولتجولنا مثل بقية الخلق في بلدان أوروبا.

– هذا همك؟..

– لم يبق في العمر متسع، اصح، اترك هذه الكتب العقيمة والصحف التي لا قيمة لها.

وينظر إليها أبو علي وقد عجز عن مناقشتها.. فلقد تكررت هذه الحالة منذ أكثر من عشرين عاماً، لم يعد ينفع إقناعها أو إعادة أيٍّ من هذه المفاهيم التي ارتسمت في مخيلتها، ولقد تغيرت الحياة من حول أم علي، الحياة تركض والأسعار تشتعل ناراً، والأسواق تمتلئ بكل المغريات، والسيارات أصبحت أكثر رفاهية، وما عادت تطمح بسيارة يابانية.. وكل أملها أن تركب مرسيدس، أو كاديلاك، ودائماً تردد:

– لـمَ لا..؟ هل الذين يركبون المرسيدس أحسن مني؟.. كل المسألة هي مسألة حظ وزوج كسول ما زال يعيش بعقلية وأخلاق أيام زمان.

وهكـذا يدور الشريط كل يوم ليعيد نفس المشـاهد منـذ أعوام حتى تتكرر جلسـته قرب أم علي أمام شاشـة التلفاز، وسرعان ما تغفو وتفتح فمها، ويعلو شـخيرها ويرتفع ضغط دمه كلما اتجه إليها وشـاهدها بهذه الحالة، ولا بد أن يصرخ:

– أم علي.. نامي في فراشك..!!

ويبدأ المُسجِّل يدور من جديد.. ويستمع لنفس الكلام والاتهامات.. ويتناسى الموضوع ويتخيل أنه لم يسمع، ثم يخبو صوت أم علي وتظل جالسة تقاوم النوم، ثم يغلبها النعاس.. وتنام على صوت أبي علي قائلاً:

– لقد انتهى التلفاز.. قومي إلى فراشك..

ولكنها سرعان ما تتمادى قائلة:

– لستُ نائمة..

ومن ثم تسأل:

– ها.. ماذا حدث لنهاية فيلم السهرة؟..

ويجيبها أبو علي وهو في طريقه إلى احتضان المذياع الصغير:

– أوه، لقـد تزوجـا كالعـادة، ألا تعلمـين أن هذه هي نهايـة أفلامنا العربية؟

اعتاد أبو علي هذه الحياة حتى أصبحت جزءاً من سـلوكه اليومي، بل لم يعد يسـتطيع أن يُبدّل روتينه، إذ أصبح أسـيراً له منقاداً لسهولته مدمناً عليه، بل ما عاد يفكر في أن يكسر طوقه ويحرر نفسه، وخيّل إليه أنه عاجز فعلاً عن تحدي هذا الطوق الذي كبّله منذ سنين.

أول أيام العشــق

فجـأة شـم عطراً متميزاً، عندما جلسـت خلفه امـرأة، نظر إليها من طـرف عينيه ثم عاد مندمجاً مع شاعر يلقي قصيدة وجدانية سحرته كثيراً لأنها ذكّرته بأيام طفولته وسـاحات لعبه وأترابه وقرى وطنه الممتدة على النهر، مطرزة بملايين أشـجار النخيل، ولما انتهت القراءة الشعرية طلبوا من الشاعر أن يزيد مادام قد بدأ وأبدع وتحلّقوا حوله.. فالتفتت إليه دون معرفة سابقة قائلة:

– هل يمكن أن أصرف السائق.. وتوصلني بسيارتك؟..

وبلا تردد ابتسـم بفخر ثم التفت إلى الخلف وإلى جانبيه كان يظن أنها تكلم فـرداً آخر، لكنه تأكد أنه المعنـي، وبارتباك وخجل طفولي مدرسي أجاب:

– بكل سرور سأوصلك..

ولم يفهم بعد ذلك شـيئاً مما ردده الشـاعر في تلك الحلقة، إذ حاول أن يكشـف سرّ هذه المرأة التي نزلت ضيفة على حلقتهم الشعرية دون سابق معرفة، وسرعان ما بدأت تردد قصائد من نظمها..

وقال في نفسه:

- هي شاعرة إذن..!

مـات الزمن عنـده.. ونسي أم علي.. وكبـر تركيزه على وجهها المعبر، وسرعان ما ضمتها سيارته الصغيرة أول مرة، تكثف العطر المتميز داخلها، كان ينظر إلى جانبـه، فيجد امرأة جميلة أنيقة لأول مرة تجلس بجانبه بدلاً من أم علي زوجته.. وقال في نفسه:

- يبدو أني لن أنام الليلة..

وقاد سيارته مرتجفاً من الرعب والمفاجأة..

نظرت إليه واكتشـفت ارتباكه، فابتسـمت له، بدأت تقرأ شعراً، وفي منتصف الطريق بين مدينتي الشارقة ودبي بدأ يخفف سرعة سيارته، وحينما وصل إلى دوار النهدة انتهت القصيدة الأولى، التفت إليها واستجمع كل قوته واسترجع شجاعته وقال:

- زيديني شعراً.. فلقد مسست شغاف القلب.

- معقول؟

- لا داعي لأن أكذب.

وأدار مقود سـيارته متجهاً بلا هدى في شوارع دبي الساكنة والهادئة.. وبدأت تلقي قصيدة تلو الأخرى.. وتجاوز نفق "الشندغة" وأوقف سيارته فجأة وقال:

- أرجوك لا تتوقفي.. يبدو أنني لن أنام الليلة..

وظلت السـيدة تشـدو بشِّـعرها، وانتصف الليل، وتاهت سيارته في شوارع دبي النائمة بهدوء على ساحل الخليج كعروس تحتفل بلقاء حبيبها ليلة عرسها.

وحدّق فيها طويلاً.. وهو لا يدري كيف يصف شعوره.. يبدو أنه ما عاد كما كان، وأن ليلة من الليالي غير المعقولة ستمر على حياته.. وأن وقاره كلـه مُهدد بالضياع.. وأحس بأن كل دواخله تنتزع، وأنه يعود إلى الوراء مخترقاً كل السنين التي مرت سُدى في حياته، أحس بجلده يتحرك، يتهرأ ويتشكل جلداً جديداً، وجهه ما عاد كما كان، لقد سقط قناعه الجامد، بل أحس بأن قلبه يُقلع بمقلاع، ويُزرع بدلاَ منه قلب شـاب مراهق مُتلهف مُحـب، أحس بأنـه يريد أن يرقـص أو يركض في الشـوارع كأي مراهق، كانت أحاسيس تتشكل في دواخله، التفت إليها:

- سيدتي.. لماذا تأخرنا كل هذه السنين ولم نلتقِ؟..

قالت:

– تمهّل، فبيني وبينك مسافات ومسافات، هذا البحر، وهذه الظلمة وآلاف السنين الضوئية..

– نحرق كل المسافات..

توقفت السيارة في ظلمة الشارع، نظر في عينيها فأحس كأنه يعرفها منذ سنين طويلة، مدّ كفه فاستقرت في راحة يدها، تعانقت اليدان وتعانقت العينان، وظلت المسافات تفرّق بينهما..

قالت:

– دنيا خرافية، الربيع ينتظرنا، تمهّل.

– ولكننا في خريف العمر وما عاد في العمر متسع.

– وقارك سيدي..

– ما عدت كهلاً، في دقائق استطعت أن تحرقي أعوام التعب التي حملتها عشرات السنين.

– أخشى أن نكون قد بالغنا بعواطفنا.

– لا لم أقل أنا أحب، لكنني بصراحة أنا في حالة غريبة، لم أحس بها منذ سنين، حتى نسيت كم من السنين، بل انعدم عندي الشعور بها..

ولقد أيقظتِ فيَّ كل تلك الهواجس والآلام.

- كفى.. لقد تخطينا منتصف الليل.. وهم في انتظاري الآن..

أوصلها إلى مكانها، علم أنها زائرة، تسكن الفندق مع أهلها، وأنها طلبت أن تحضر الأمسية الشعرية، وابتسمت بأسى بالغ وقالت وهي تحاول توديعه:

- أقدار؟..

- سيدتي..

توقفت والتفتت إليه، فأكمل قوله:

تأتين مع الريح..

تُهيِّجين كل الآلام..

تهربين مع الريح، وتبقى أصابعي فارغة لا تقبض إلا ريحاً..

وضلوعي تشتعل لهيباً..

- أهو الشوق سيدي؟ أم الحب؟.. (قالت له مقاطعة استرساله)..

- كلاهما..

- إذن نلتقي غداً..

وابتعدت بقامتها المرهفة وشعرها الأشقر الحريري وضمتها مصابيح الفندق الفخم وسرعان ما ابتلعها المصعد وأضاعها، وعاد حسين مُجرداً من اسم ابنه، فما عاد من تلك اللحظة إلا حسين.. وحسب..

ظل ساكناً أمام المقود لا يدري كم هي المدة التي قضاها قبل أن يتحرك بسيارته عائداً إلى داره، مرَّ بالشندغة وبكل الشوارع التي كانا يحلمان بها قبل دقائق..

– لا بد أنه حلم..

قال في نفسه.. ثم أردف:

– إيه، منذ كم سنة لم تمرّ عليك مثل هذه النسمة، وكم هو جميل شعور الإنسان بالحب.. أو على الأقل هذا الشعور، أنا لا أملك حتى تصديق ما كان..

– ماذا حلَّ بك يا أبا علي؟..

– من أين أتتك الشجاعة؟ صحيح كنت زير نساء في شبابك، ولكن الزمن تغير، وملأت الدار صبياناً وبنات وما عدت تفكر إلا في مستقبلهم وفي كلام زوجتك أم علي..

وسرعان ما جاء صوت أم علي..

– العالم كله يركض وراء المادة وأنت وحدك تبحث عن المستحيل في مدينة أضاعت كل علاقاتها الإنسانية..

– سأطبع كتابي في النقد – قال في نفسه..

ثم عاد صوتها يرن – إنك تحلم..

– ليت الحلم لا ينتهي..

– محمد الأعرج لا يملك قدراتك، وهو شبه أمي.. لكنه يملك الملايين!!

– إيه.. أي حلم جميل لو استطعت أن أحقق طباعة كل الكتب التي كتبتها طوال حياتي..

– أما سمير الذي لا يعجبك أسلوب حديثه ولا علاقاته فقد أكمل بناء العمارة الثانية بعشرة طوابق، جرّب وقابله، فلعله يفتح لك أبواب الرزق؟

– لا تذكري اسمه..

– وأبو نادر؟ ودرويش؟

– يتاجران.. بالـ...

– ليس المهم بما يتاجران..

– إنما..

– إنما ماذا يملك الإنسان، أين يقيم الإنسان، فيلا، أم قصر، كم مرة يسافر إلى الخارج، نوع سيارته، رصيده بالبنك.

وصرخ وهو يقود السيارة عائداً إلى الشارقة:

– لا، لا، لا يمكن، أي صداع يسببه لي هذا الحوار الذي لا ينفك يضرب رأسي!.. سأجنّ.. إنها لا تتركني حتى ولا وهي بعيدة عني.

وكاد أبو علي أن يصدم سيارة كانت تسير أمامه، وانتبه في اللحظة الأخيرة وعدل مسار سيارته، وحاول أن يعود إلى حلمه، ما زال عبق عطرها مُعلّقاً داخل سيارته، وما زال رنين صوتها يردد:

– يا قمراً أسطع من كل الأقمار..

يا صمتي.. يا حزن الأعوام..

هل حقاً يعشق إنسان في القرن العشرين

قمراً؟..

هل حقاً يكتب شوقاً..

أشعاراً في القرن العشرين

ويهيم:

هل حقاً يتكرر مجنون في القرن العشرين؟

يعشق حتى العظم..

وتوقفت السيارة أمام باب المنزل دون أن ينظر في ساعته، فقد انعدم عنده الإحساس بالزمن، دخل الدار وجد أم علي ماتزال مستيقظة على غير عادتها وما زالت تنتظر عودته، قلقة، فلقد تأخر على غير عادته، هو الآخر سألته:

- أين كنت حتى هذه الساعة..؟

فأجاب دون أكتراث

- مع أصدقاء لي..

- من هم..؟

- .....

تركها واحتضن كتاب ديوان "طفولة نهد" وتشاغل عنها بالقراءة، وبالرغم من أنه لم يقرأ منه بيتاً واحداً، إلا أنه ظل جالساً حتى أذان الفجر.. ترك نزار قباني على المنضدة، أطفأ الضوء واستلقى على السرير حتى أشرقت شمس نهار جديد..

اليوم الثاني للعشق

لم ينم الليلة الماضية، ظل مُتيقظاً، نهض من فراشه وظل يدور في أرجاء البيت، وكلما رفع سماعة الهاتف أحس بأم علي وكأنها تراقبه رغم نومها، احتار كيف يمكن أن يتصرف؟.. تصور نفسه وقد عاد مراهقاً، حاول مرة أخرى مع الهاتف ثم ابتعد عنه، ذهب إلى المطبخ، وضع إبريق الشاي على النار، عاد إلى الصالة أمسك جريدة الصباح، طالعها، لم يفهم منها حرفاً، تراقصت العناوين أمام عينيه..

- آلاف القتلى على جبهة الحرب العراقية الإيرانية..

- فشل محادثات السوق الأوروبية..

- انفجار الموقف في بيروت..

- حصار جديد لصبرا وشاتيلا

– أزمة الشعر العربي..

– أزمة المسرح في..

– لقاء مع ليلى عـ..... (طـز)، قالها بصوت عالٍ..

ورمى جريدته وأمسك مفتاح سيارته وانطلق مسرعاً بملابس نومه، توقف فجأة عند أول هاتف عمومي.. رمى درهماً وأدار قرص الهاتف.. تناهـى له صوت عاملة الاسـتقبال في الفندق وسرعان ما حَوَّلت المكالمة إلى الغرفة.. فأجابته من الطرف الآخر.

– كنت أنتظر هذه المكالمة..

– ....؟.....

– لم أنم.. والله.. لا أدري أي شعور ينتابني؟

– ....؟....

– مالك صامت.. ألا تسمعني؟

وقال متلعثماً:

– بلى أسـمعك، ابقي على الخط حدثيني إننـي أصغي، أنا بحاجة إلى صوتك..

وأخرج مـن جيبه درهماً آخـر ورماه في صندوق الهاتف واسـتمرت المكالمة..

- كيف سأراكِ اليوم؟..

- اليوم؟ لا.. لا أستطيع..

- لماذا؟

- أختي..

- ما بها؟

- لا أستطيع أن أتركها وزوجها.. سأضطر للخروج معهما، لا بد من ذلك.

- إذن سأُحرم هذا اليوم..

- تخيل لو أنك لم تقابلني أمس..

- ولكني قابلتكِ ولا أستطيع أن أمسح الصورة..

- لنفكر في الأمر..

- كما ترين..

- عندي اقتراح..

- ما هو؟

وأخرج درهماً آخر.. ورماه مرة أخرى في صندوق الهاتف..

وأكملت السيدة حديثها قائلة:

– نبتعـد هـذا اليوم.. وإذا وجدنا أنفسـنا بحاجـة إلى أن نتقابل غداً، اتصل بي، أو أتصل بك..

– كما ترين، لكني سأظل حزيناً كل يومي..

– لا تجعلني أحس بالمرارة.. والشعور بالذنب.. (قالتها بحزن).

– ولكني حزين.. أنا، أنا لا أستطيع أن أكذب شعوري (ورمى قطعة نقود).

– حرام عليك يا رجل، حرمتني النوم..

– أما أنت فضيعتِ كل وقاري.. (ثم أردف) أيتها القاتلة..

– أنا؟.. (قالتها بخوف مشحون بعاطفة مأساوية) أنا يا حسين؟

– كل امرأة عاشقة مثلك قاتلة مع سبق الإصرار..

وانقطـع بعد أن دفع آخر درهم يحمله، نظر شـزراً إلى جهاز التليفون وبصق عليه..

– جهاز لعين.. حتى هو مادي في هذا المجتمع.. لا ينطق إلا بدراهم.. شره لا يشبع، ست دراهم لدقائق، وكأني أكلم جزر الواق واق..!!

مرة أخرى بصق واتجه نحو سيارته، ووصل إلى بيته، فتح الباب برفق

فوجد أم علي ما زالت تغط في نوم عميق، وإبريق الشاي يغلي..

جلس على أريكة وسط صالة البيت.. وراح في حلم بعيد وتساؤلات محـيّرة ظلت بلا أجوبـة، بل لم يصـل إلى قناعة ما، لكنهـا ظلت تدور في رأسه..

- هل يمكن أن يكون العشق شقاءَ؟ وأجاب:

- إذا كان كذلك فلماذا نحب؟

ثم محاولاً إقناع نفسه..

- لكن لا.. خلاصنا في الحب..

ثم خاطب معشوقته:

- والحب يا سيدتي لغة وحوار وأغنية وقصيدة..

وتساءل للمرة المليون:

- ما الذي يربطني بها؟ قوامها، جمالها، أنوثتها، صوتها..؟

وجودي العاطفي وانهزامي في الحياة وداخل البيت طوال هذه السنين؟.. غربتي.. اغترابي؟ أم أحببت فيها الشـاعرة.. أوه.. ربما دائماً كان الشـعر ملجئي.. يمنحني الحياة.. ويُرطِّب أرضي الجافة كالمطر..

- لكن.. لماذا نحب؟.. هذا ليس عصر الحب.. إنه عصر اللهاث وراء

الخبز والنوم بلا تفكير.. عصر الكسل.. والكسل والحب لا يلتقيان.

– عجيب أمرك يا حسين.. لقاء لم يدم أكثر من ساعتين وتصبح هذه السيدة ليلك وصباحك؟

ثم ردد حالماً...

الحب في الأرض بعض من تخيلنا

لولم نجده عليها لاخترعناه

ثم أردف:

– إنه العشق سيدي..

مرت تلك الجمعة طويلة.. قاسية.. مريرة.. لم يشعر بها ولم يجد راحة في الجلوس الطويل.. وهو الذي كان ينتظر أيام الجُمع حتى يرتاح من عناء العمل ويبتعد عن الوجوه التي اعتاد أن يعيش معها كل تلك السنين الطويلة من العمل.

كلكل الليل قاسياً مظلماً.. وأحس به طويلاً موحشاً.. حاول أن يرفع سماعة التليفون عدة مرات.. لكنه تراجع خوفاً من الفضيحة أمام زوجته وأولاده.. وتشاغل بالقراءة ساعات دون أن يعي حرفاً مما كان يتابعه.. ثم احتضن مذياعاً صغيراً واستلقى على سريره.. وبدأ يسافر من محطة إلى أخرى، ومن تعليق إلى أغنية ومن نشرة أخبار إلى تمثيلية، وانتهت إذاعات

العالم.. وسكتت دروب الدنيا الضيقة على اتساعها.. وأحس بسقف الغرفة من فوقه كتلة إسمنتية تجثو على صدره، وتناسى المذياع.. وغاب في حلم لم يدرك كنهه، وتحوّل حلمه فجأة إلى كابوس، وقفز من فراشه صارخاً، وكتم صراخه في اللحظات الأخيرة وتساءل:

– تُرى متى سيبزغ فجر يوم آخر.. ولِمَ تطول الليالي هكذا؟.. وكيف سيكون يومه التالي؟

وأدرك أن هواجسه لن تنتهي وأن الأفضل له أن يجد ما يشغله، ولكنه ظل كما هو.. عاجزاً عن أن يجد ما يلهيه عن كل هذه الأفكار.. وأحس بظمأ يحرق صدره، نار تشتعل في أعماقه فجأة.. أسرع إلى المطبخ وفتح باب الثلاجة وشرب ماءً بارداً من القنينة مباشرة.. لكنه لم يرتوِ.. تجوّل هنا وهناك في داخل المنزل دون أن يشعل ضوءاً.. أحس مرة أخرى بأن الليل أطول مما ينبغي أن يكون.. فتح ستارة الشباك.. وانسل ضوء الفجر إلى الغرفة معلناً بزوغ يوم آخر.. وظل مسمراً كتمثال قرب الشباك دون حراك.. حتى أشرقت شمس نهار جديد.

النخلة واللوز الأخضر

رنّ الهاتـف في المكتب.. وظل يرنّ دون هوادة.. أسرع الفرّاش وحمله فتناهى صوت نسـائي رقيق ومتناغم، انتفـض الفراش الهندي، وأجاب بعربية أعجمية غريبة..

– أستاذ.. ما في هنا..

وقبل أن يغلق الهاتف كان الأستاذ قد دخل المكتب.. وما إن رآه الهندي حتى استدرك..

– في موجود.. هالحين يجي..

وخطف الهاتف من يد الهندي.. أوصلت له الأسلاك صوتها.. أطبقت شفتاه.. لم يستطع أن يجيب.. التقط أنفاسه.. وتنفس بعمق.. وقبل أن تغلق السماعة بعد أن يئست من إجابته، قال:

– نعم، عفواً كنت متعباً..

– أين كنت..؟ منذ الصباح وأنا أفتش عنك..

– لم نتفق على موعد.. لقد قررنا أمس ألا نلتقي اليوم..

– ولكني لم أستطع.. تعال حالاً..

رمى سماعة الهاتف من يده.. وانطلق مسرعاً إلى دبي.. الشوارع يتجاوزها دون الالتفات إلى إشارات المرور ولا إلى التقاطعات.. أوقفته دورية مرور قسراً.. وبلطف قال الشرطي:

– ملكية السيارة وإجازة السوق.. لماذا أنت مُسرع هكذا؟

وبلا تردد سلّم حسين ما أراد منه الشرطي.. واجتاز شارع الوحدة.. وسرعان ما اجتاز دوار النهدة.. وفي دقائق توقف بسيارته أمام باب الفندق، كان خور دبي يدب بالحركة.. الناس تتحرك بآلية عجيبة، لكنه وجد أن كل شيء قد تغير، وجد في الخور طقساً آخر وجمالاً جديداً، لم يكن يتحسسه كل يوم، وتعجّب.. وقال في نفسه:

– أترى حقاً أن الخور جميل بهذا الشكل؟.. تُرى لماذا لم يتذوق هذا الجمال على مرّ الأيام التي قضاها؟

كانت تقف أمام بوابة الفندق الكبيرة، وهجاً من نور. وجه زادته السنون جمالاً وأنوثة، وشعر أشقر حريري الملمس يهفهف فوق كتفيها كشراع سفينة محملة باللؤلؤ والبخور، وقوام ممشوق رغم امتلائه، مثل

نخلة بصرية (نشـوى) وقد تناسـقت ألوان بدلتها الحمراء، وشـكّل كل ذلك تكويناً في لوحة زيتية لرسـام مبدع.. غارت الفتيات البكر من جمال امرأة الأربعين، وكنّ ينظـرن إليها كلما خرجن من بوابة الفندق الكبيرة، هـي التي لم يكن وجههـا ملوناً بالماكياج ومسـاحيقه، لكن بشرتها كانت نضرة إلى درجة ترى الدم بين وجنتيها.. وتخشـى أن تمسـكها فتنزفا دماً أحمر بلون الشفتين.

وقف برهة من الزمن أمامها، تعانقا طويلاً بعيونهما دون أن ينبسا بكلمة واحدة، وتساءل مع نفسه، أي قدرة ربانية للخالق كي يبدع في نحت هذا الجسـد ويُسـكنه هذه الروح وزرع فيها ملكة الشعر؟.. وأي مخلوق هذا الذي يجمع بين جمال الجسد وخفة الروح وإبداع الشعر؟

مدت له يدها، احتضنها وتحركا معاً وقال بصوت خافت:

– أخشى أن أكون قد تأخرت وآذتك الشمس؟

– أنت والشمس حياتي.. أما يكفي أنني أملك كوكبين..

وتحركت السـيارة بهما على امتداد خور دبي، غاب كل شيء حولهما إلا أنفاسهما وإحساسهما ولهفتهما..

قالت:

لنذهب إلى السوق.. لا للتسوق.. إنما لأشعر أني معك.. وكأني جزء من حياتك الماضية.. نتسوق معاً كزوجين، يعجبني أن تضمنا الحوانيت والأسواق، فقط، يعجبني.

ونزلا في مركز الغرير.. وبدآ يدخلان معرضاً بعد الآخر ويتسوقان.. في كل مرة يحاول جاهداً يدفع عنها الحساب، لكنها تمنعه..

– دعني أتسوق وأنا أدفع، حينما يعجبني أن تدفع سأطلب منك ذلك..

وقفا معاً كطفلين صغيرين أمام بائع مثلجات واشتريا "بوظة".. حاولا أن يطفئا ظمأً لا يطفأ ويخمدا ناراً لا تموت..

فجأة انتبهت إلى "فاترينة" كبيرة لمحل يبيع اللوز الأخضر.. وصرخت بطفولة:

– الله يا حسين.. لوز أخضر..

– وسحبته من يده فركضا إلى المحل وطلب كيلو من اللوز الأخضر..

– ادفع يا حسين.. هذا أغلى ما بودي شراؤه..

وحملت كيس اللوز الأخضر، وبدأت تأكله..

– هذا يذكّرني بطفولتي..

قالت له:

– يعجبني اللوز الأخضر، أوه منذ سنوات طويلة لم آكل لوزاً أخضر..

– ولم أشعر بأني صغيرة مثل اليوم..

وجلسا في كافتيريا صغيرة.. ولكنها ظلت تحلم وهي تتكلم ولم تترك كيس اللوز..

– زوَّجوني وكان عمري ستة عشر عاماً.. كنت ورداً ياسميناً معطراً، وقطعوا شتلة الورد من حقل الياسمين كنت آكل لوزاً أخضر قطعته من بستان قريب، كنت ألعب مع زميلاتي، قالت لي خالتي ستسعدين معه، سيأخذكِ إلى نهاية العالم، وستلبسين الماس والجواهر واللؤلؤ، صدقتها ورميت كيس اللوز، وباقة الياسمين وتركت صاحباتي، ولم أكن قد شاهدته، وحينما عشت معه مات كل شيء في حياتي، شقاوتي، لعبي، طفولتي، أحلامي، حتى اللوز الأخضر وورد الياسمين.

وسكتت، ولم تأكل اللوز الأخضر، وسافرت مع ذكريات عمر طويلة.. وسافر هو الآخر إلى شواطئ نخيل مدينته، وسأل نفسه:

– كيف يمكن أن تتعايش شجرة اللوز الأخضر مع النخلة..؟

وضحك.. ضحك.. ضحك حتى استلقى على ظهره من الضحك،

ونظرت إليه ودون أن تسـأله عن السـبب، ضحكت حتى دمعت عيناها من الضحك، ضحكا معاً وتمتم بصوت عالٍ سائلاً:

– هل يمكن أن تتعايش شجرة اللوز والنخلة؟

قالت:

– نعم لِـمَ لا؟

قال:

– في السياسة لا.. مستحيل أن يلتقيا..

وحينما سـمعت ذلـك زاد ضحكها، وحمـلا كيس اللوز وسـارا معاً وقال لها:

– لا بد أن أشتري تمراً..

ودخلا السوق، حمل علبة التمر، ثم رماها فجأة، فقالت له:

– لماذا لا تأخذها؟ سأدفع أنا ثمنها..

قال:

– لا.. أنا لا آكل إلا تمر البصرة..

ونظرت إلى وجهه وضحكت، لكنه سارع بالخروج من السوق بعيداً

عنها.. وحاول أن يُبعِد عن نفسه كل تأثر.. ومشت بجانبه وقد تركت اللوز، وما عادت تأكله.. ونادته:

- يا حسين..

التفت إليها..

قالت:

- ألهذا الحد تحب وطنك يا حسين؟

وهزّ رأسه موافقاً، ثم سيطر على نفسه.. وقال:

- أفي هذا شك يا سيدتي؟

ونظرت قليلاً في وجهه، وغابت الضحكة من شفتيها، وتمتمت، ثم أنشدت بصوت رخيم كتراتيل كنيسة..

- أين العراق؟.. وأين شمس ضحاه تحملها سفينة

في ماء دجلة أو بويب؟ وأين أصداء الغناء

خفقت كأجنحة الحمام على السنابل والنخيل

من كل بيت في العراء

من كل رابية ترسلها أزاهير السهول؟

وسكتت، ولم تكمل القصيدة؟

- ....؟؟؟

- لا تصمتي هكذا، أكملي المقطع على الأقل..

وظلت صامتة وهزت رأسها فتَحرك شعرها الحريري.. صرخ مكملاً:

- إن متّ يا وطني فقبر من مقابرك الكئيبة

أقصى مناي..

وإن سلمتُ فإن كوخاً في الحقول

هو ما أريد من الحياة..

فدى صحاريك الرحيبة أرض لندن والدروب

ولا أصابتك المصيبة

وتمتمت قائلة:

- كان السياب رائعاً، حسين لا تقلبها تراجيديا.. هيا لنذهب إلى مكان آخر..

دبي.. البــر الثاني

واصـلا طريقهما واخترقا كورنيش الخور.. وكانا لا يزالان تحت تأثير اندماجهما بقصيدة بدر.. التفت إليها وكأنه يفتش عن عذر، قال لها:

– عفواً سيدتي.. لقد هيجت عندي الأشجان..

– كلـه مـن اللوز الأخـضر.. لولاه لمـا قطعنـا كل تلـك اللحظات الرائعة..

– كان لا بد أن نحس معاً بمعاناة الآخر..

– غابت عن ذهني.. هذا تطور في علاقتنا.. لنذهب إلى البحر..

– البحر..

– أتخشاه..؟

لا.. أرهبـه وأحبه.. هـو جزء من تكوين اكتسـبته عندما عايشـته..

هـو بديل النخلة في أعماقي.. وهو رديف لهـا، لتواجدها.. هو أنا... وأنا هـو، كلانا يفهـم الآخر.. بقـدر ما يفهم الإنسـان صاحبه.. أنـا النخلة البحر.. أو البحر النخلة.. لا أدري.. فكرت يوماً طويلاً وسألت نفسي.. أيـن يكمن خلود الإنسـان.. تأملت ملحمة كلكامـش ولم أصل إلى سرّ الوجود.. جلست قبالة البحر ساعات وفكرت: هل يمكن أن يجد الإنسان ذات يوم خلوده في أعماق البحر؟.. وأين سيجد سعادته.. مازال الإنسان يبحث عنها ويظل عاجزاً عن الوصول إليها.. ظنها في المال وفشل.. ظنها في الأولاد فأُحبط.. وظنها في الأوطان فاغترب ونُفي وعُذّب.. في الحياة.. أين سيجد السعادة.. أين..؟ لا أدري..

وقالت:

– حسين.. هل هذا يعني أنك لا تشعر بالسعادة معي؟

– قد أشـعر بها.. إلا أنني في نفس الوقت أشـعر بالذنب كلما تجردت عن عواطفي.

– الذنب..؟ أيعني أني ضعفك.. عورتك..؟

– كلا.. بل ثقل السنين وارتباطاتها وقيودها..

– إذن أنا قيد جديد مُضاف إلى قيودك..

– ولكنه قيد جميل..

– كل القيـود سـجن.. وإن صُنعـت من ذهـب.. لا أريـد أن أكون قيدك..

– ولكني أريدك قيداً لرقبتي..

– أين كنت كل هذه السنين..؟

– وأيـن كنت أنت؟ ولِـمَ نتقابل فجأة في غفلـة من الزمن.. ولِـمَ لـمْ التقِ بك يوم كنت في السادسة عشرة؟

– كنت ألعب على نهر بردى.. هل شاهدت بردى في الربيع؟

– وهل شاهدت دجلة في كل الفصول؟

قالت:

– بلى.. وأعجبت به.. وشاهدت كل نخيل العراق في قصائد السياب فعشقت العراق.. وأنت؟

– عند بردى.. استرجعت كل ذكريات الوطن.. تآلفت معه وكأني جزء من غوطته.. صدقيني حينما كنت أمشي في سوق الحميدية كنت أظن نفسي في الشورجة(*).. أو سوق الهنود(**)..

(*) سوق مشهور في بغداد.
(**) سوق مشهور في البصرة.

وفجأة قالت:

– تعال نعبر للبر الثاني.. من المعبر هذا..

وكانا قد وصلا إلى المعبر في خور دبي.. وبلا تردد أوقف سيارته عند أول موقف.. وترجّلا.. وركضا.. نحو الماء.. وركبا زورقاً صغيراً قطع بهما الخور عرضاً.. ولم يشعرا إلا وهما وسط الماء.. كل شيء يبتعد عنهما، كانا متلاصقين شوقاً لا خوفاً من الغرق، بل كان بودهما لو يغرقا معاً.. وصل الزورق البخاري إلى الجانب الآخر من الخور.. وقفزا كالعصافير وتسابقا في المشي دون أن يلتفتا لمن حولهما من البشر متعددي الجنسية والشكل واللغات..

وضحك حسين ملء شدقيه..

قالت:

– لماذا تضحك؟

قال:

– أضحك لأننا لا نفهم ما يقول الناس عنا ونحن نتصرف مثل مراهقين عاشقين..

– أحسن.. وهم أيضاً لا يفهمون..

– مثل الأطرش في الزفة..

وضحكا معاً وسارا في سوق دبي القديم منتقلين من قمّاش إلى بائع.. عطور فخياط..

وأخيراً، وقفا أمام هندي يبيع السمبوسة

– ماذا تريدين من هذا الهندي؟ "قال حسين":

– سمبوسة.

– قد تكون سيئة وتمرضين!

– تأكل معي ونمرض معاً..

– إذن سآكل..

وغرقا في ضحك عجيب.. وضحك الهندي معهما كاشفاً عن أسنان أكلتها السوسة ولسان محروق من اللبان.. لقد انتقلت سعادتهما إلى هذا الرجل المعذّب.. كان يضحك مثلهما بسعادة متناهية رغم أنه لم يفهم من كلاهما سوى "سمبوسة"!!

قال الهندي:

– سمبوسة تيكا؟..

وقبل أن يطلبا بدأ يضع لهما السمبوسة في كيس ورقي.. وكان كريماً إلى درجة أنه لم يحسب عددها.. ومدّ حسين يده وأعطاه ورقة نقدية بعشرة دراهم فسارع الهندي وأرجع له خمسة دراهم..

– كل هذا بخمسة دراهم. فقال له: خذ هذه بقشيش لك أيها الرفيق العزيز..

كانت الشمس قد غابت منذ ساعات..؟ أظلمت الشوارع وأنيرت المصابيح وتلألأت دبي كماسة تلمع تحت ضوء القمر.. وبدأ الخور يتحرك بلا هوادة من خلال حركة الزوارق..

وركبا مرة أخرى وعادا إلى مكانهما..

وقالت له:

– دعنا نعود.. لقد قاربت الساعة..

وقاطعها صارخاً:

– ليطلع الفجر..

– لكنهم ينتظروني كالعادة..

– من؟..

– أخواتي..

– دعينا نقضِ سويعاتنا..

– وما الفائدة.. سنفترق غداً..

– أقررت السفر غداً..؟

– كان لا بد أن أسافر اليوم.. وقد أجّلتُ سفري من أجلك..

– إذن أجّليه غداً..

– لن أعدكِ.. على أية حال سأتصل بك غداً باكراً.

– ....

– في كلتا الحالتين سـنلتقي.. إن سافرت تذهب معي إلى المطار، وإن استطعت أن أؤجله.. نواصل رحلتنا في الكشف عن سعادتنا الضائعة..

– لن أنام الليلة كالعادة..

– لا تجعلني أشعر بالذنب..

– أنت لا ذنب لك.. لن أنام الليلة..

– اذهب واحتضن زوجتك وستنام..

– لست بحاجة إلى جسد امرأة.

– إذن..

– في مثل عمري يصبح الجسد شيئاً آخر.

وفتحت باب السيارة.. ووقفت على الرصيف.. ونظرت إليه بينما ظل مطرقاً الرأس على مقود السيارة.. عادت ودخلت بجانبه وأغلقت الباب وقالت:

– لا أستطيع أن أراك حزيناً.. لا أدري لِـمَ يعشق الإنسان؟

– سـيدتي.. مللت الغربة.. ففتشـت عن نفسي.. وعجزت وأصابني العنت.. إلى أن وجدتها في صدر امرأة..

أفقدتني بقايا الصبر..

كلاهما يسمو بالمرء عن البشر..

ما الفرق بين عشق امرأة.. والوطن؟

قالت:

– هل أنت فعلاً بحاجة إلي؟

وهل أنا أعشقك فعلاً؟

لا أدري..

لنجرّب غداً..

غادرت السـيارة.. وانطلق بعد ذلك مسرعـاً.. جلس قبالة البحر في ركنٍ منزوٍ وظل سـاهماً.. يراقب النجوم في سـماء مطبقة على البحر.. هو والبحر ونجوم السماء.. مَنْ هو الأكثر خلوداً؟ وعجز فكره عن الوصول إلى حلول لكثير من التسـاؤلات التي أتعبت دماغه وشلّت تفكيره.. كاد الفجر أن يبزغ.. حمل نفسه ودخل داره.. وجد أم علي جالسة تنتظر عودته

بفارغ الصبر بعد أن تأخر على غير عادته..

سألته بقلق شديد:

- أين كنت؟..

أجاب ساهماً..

- قبالة البحر..

- قبالة البحر.. ماذا تفعل؟ مع مَن؟ ولـمَ؟

وظلت تتكلم وهو لا يعي مما تقول شيئاً.. ولكنه تظاهر بأنه متجاوب مع حديثها.. مرة يقول نعم.. وأخرى لا.. ويتعجب.. ويستنكر.. ويبتسم.. وهو لا يدري ما تقول أم علي.. ثم أطفأ المصباح وأظلمت الغرفة.. واستلقى على ظهره فوق السرير.. وظلت عيناه مفتوحتين وشاخصتين في السقف المظلم.. وسرعان ما سمع شخير أم علي.. ومضى الوقت بطيئاً جداً حتى أذان الفجر.. ثم أشرقت شمس نهار جديد..

الـخـان

ظل منذ الصباح يحسب ساعاته ويحاول أن يختصر الزمن.. لكن عقارب ساعة الجدار في مكتبه ظلت رتيبة في حركتها، يكاد رقاصها ألا يتحرك.. وكأن الزمن توقف، لم يتحمل الانتظار ولم يعد يمتلك وقته، إنه يعلم تماماً ما ينتظره في بيته، نصف دزينة من الأطفال، ومطالب لا تنتهي.. وأم علي منذ الصباح تبدأ ولولتها التي لا تنتهي أيضاً حتى منتصف الليل، أما هو فقد ملَّ ذلك الروتين الذي بدا سـخيفاً أمام هذا التجدد في هذه الأيام.. اسـتبعد هواجسـه ونظر مرة أخرى إلى سـاعة المكتب ثم إلى ساعة يده.. وأسرع إلى رئيسـه وطلب إجازة، وسرعان ما أجازه المدير وقد استغرب دون أن ينبس بحرف.. فالمعروف عن أبي علي أنه لا يطلب إجازة.. حتى إجازته السنوية لم يتمتع بها منذ سنين..

طارت به السـيارة متجاوزة كل الشـوارع.. وبدون وعي من أبي علي

وصلت السيارة إلى خور دبي.. كانت في انتظاره كالعادة.. انتقلت بهما السيارة عائدة إلى الشارقة.. كان الوقت مساءَ.. الشمس بدأت تغرب.. قرصها الذهبي ابتلعه البحر.. وسرعان ما غابت ولم يبق منها إلا احمرار الأفق..

كان الصمت يلفهما.. كل يعيش مع أفكاره.. بعيداً عن صاحبته وقريباً منها.. أوقف السيارة فجأة على جانب الشارع الرئيسي.. اختار منطقة الخان لهدوئها ولجمالها عند الغروب.. ترجّلت من السيارة.. ثم حملت نعليها.. وسارت على رمال الساحل نحو البحر.. وتسمرت قبالته.. أما هو فقد افترش الأرض يراقبها ويتأملها دون أن يتحدثا..

انعدم الزمن عندهما.. كلاهما يعانق البحر.. كلاهما يفكر وحده.. إيه.. يا.. يا لغربتهما في هذا العالم ووحدتهما في هذه الحياة، أظلمت السماء وكلكل الليل.. وحمل نفسه من مكانه على رمل الساحل وتقدم نحوها.. ووقف إلى جنبها.. ونظرت إليه ولم تتكلم، آثر الصمت هو الآخر..

بدا ساحل البحر عند الخان أكثر هدوءاً كلما زادت الظلمة.. لكنه ظل جميلاً كعادته.. لم يعتد الناس المجيء إلى هذا الساحل شبه المهجور رغم كثرة الفنادق على سواحله..

الأضواء بدت بعيدة تنطلق من المراكب أو هي إشارات تحذير.. وظلت

الأمـواج يتعالى حفيفهـا.. أي عالم هذا الذي من حولنـا.. وفجأة التفت حسين إليها:

– سيدتي.. هل نذهب إلى أحد الفنادق.. أو المطاعم؟

– دعني أتأمل البحر.. منذ زمن لم أتأمله هكذا.. ولم أجد فيه كل هذا الجمال..

– لكننا في الفندق.. قد..

– سيدي.. حينما أوافق على أن أسافر معك رحلة أطول.. ستفتح لك كل الفنادق أبوابها..

– سيدتي.. مع هذا البحر.. دعيني أتأمله..

– ايهما سيدي.. السرّ.. أم البحر..؟

وغاصت قدماهـا العاريتان برمال الشـاطئ.. وحضنتهما مياه البحر وزبـده.. وانحسرت الأمـواج.. كانت تحمل حذاءهـا بيديها كأي طفلة صغـيرة.. وجلـس بعيداً يتأملها هـو الآخر بهدوء عجيـب.. وكأنه لم يرَ امرأة من قبل.

عادا مرة أخرى في صمت إلى السيارة.. جلسا بداخلها.. فبدأ بتشغيل المحرك، تحركت السيارة بطيئة فوق الرمال، لم يفكر أبداً بسيارته الصغيرة

والتي ربما تغرز عجلاتها في الرمال، وخرجت السيارة بلا مجهود.

كان شارع الخان مضاءً بمصابيح فسفورية تكشف كل سواحل البحر القريبة، وكشفت المصابيح وجهها الجميل، وبدا شعرها الأشقر يتموج تحت ضوء الشارع، كانت عيناها تزدادان اتساعاً كلما حدّقت بعيداً وبدتا أجمل من قبل.. ران صمت طويل والسيارة تقطع شارع الخان ببطء، نظرت إليه أما هو لم يرَ الشارع أمامه، لم يكن أمامه إلا صورتها المجسمة وكسرت الصمت منشدة:

– ألقي وجهي فوق زجاج النافذة

أحلم بك منذ سنين

لقد اختصرنا كل الأزمان.

وقاطعها قائلاً:

– سيدتي لقد بعدت المسافات بيننا.. صدقيني أحسست الآن بأن بيننا آلاف السنين الضوئية.. إني أستغرب أن يحدث كل ذلك بدقائق.. أو ساعات.. أو أيام معدودة.. لقد أشعلتِ كل الأعماق.

قالت:

– حرام عليك.. دعني أتامل عينيك.. لقد اكتشفت بهما شيئاً لا أدري

ما هو..

– ولكننـا بدأنـا دون إرادتنا.. سـفر لا ندري أيـن يقودنا.. ترى هل يمكن أن نخلع قيودنا؟

– لا أدري.. صدقيني لا أملك إجابة.. كل ما أحسه أننا ما زلنا تحت هذه القيود، بل أشعر بأنني أثقل بقيد جديد..

– ما هو؟

– أنت.

– أنا..؟ حرام عليك (قالتها بغنج أكبر) لا تظلمني.. أي أقدار قادتني إليك..؟

– وأي أقدار قادت رجلاً مثلي لتحطمي كل الوقار الذي قيّده.. وتعيديه مرة أخرى مراهقاً يحلم بحبيبته.. ماذا أفعل.. أود أن أصرخ.. لقد أعدتني أكثر من خمسة وثلاثين عاماً إلى الوراء.. جلست اليوم أحلم كمراهق.. أنتظر موعدك.. أرتب ملابسي.. أتأنق.. أبحث عن ربطة عنق مناسبة.. ونظرت في المرآة.. عشرات المرات حاولت أن أصبغ الشـنب.. لعنت الشيطان.. وجئتك مسرعاً لاهثاً..

– أنا أم لأربعة صبية (قالتها بحزن)..

– وأنا أب لستة أولاد

– تجاوزت الأربعين

– وأنا قاربت الخمسين

– أي صدفة عجيبة؟

– لقد تأخرنا كثيراً

– وما الفرق؟ التقينا الآن..

– الفرق سنوات عمرنا التي كونت كياننا.. ستضطرين للسفر وحدك غداً أو بعد غد.. وتتركيني للأحلام والهواجس..

التفت إليها بعد أن أوقف سيارته أمام الساحل مرة أخرى، وقال لها:

– سيدتي.. من الصعب أن نظل على السواحل.. دعينا نبحر بحثاً عن اللحظة البكر في حياتنا.. دعينا نبتعد عن هذه الحبال التي تطوق عنقينا بما يسمى الواقع، العقل، العمر، الزمن، الزوجة، الزوج، العمل، دعينا نتسكع في شوارع العالم ولنمت غداً، غداً لنمت.. لم أعد أطيق السواحل.. لم تعد قادرة على استيعابي.. أريد أن أهاجر.. أسافر.. أبحر وسط البحر..

– لم يعد في العمر ما يخيف.. كلنا ننتظر الموت.. وليكن موتنا في وسط البحر.. وحسبي أن أكون معك..

وصمت.. وتمنى لو تتحدث.. لو تقول شيئاً.. لو تتوقف عجلة الزمن..

ثم قال لها:

– ماذا لو توقف الزمن وعاد إلى الوراء خمسة وثلاثين عاماً..

– ماذا كنت تفعل يا حسين؟

– لا أدري.. لأني نسيت تلك اللحظة، ولا أريد أن أختلق لحظة كاذبة.. ولو.. للتمني فحسب..؟

قارب الليل أن ينتصف.. وطرزت النجوم السـماء.. التصقت بالبحر عند الخان.. وبانت القلعة شبحاً بعيداً يزيد من غربة الشاطئ بينما التمعت المصابيح من الفنادق البعيدة المجاورة للشاطئ.. ثمة أصوات خافته تتناهى إليهما.. وفجأة قالت له:

– هل أحببت؟

– هذا يتوقف على مفهوم الحب..

– ماذا تعني؟

– إن حياة رجل في الخمسين لا بد أنها زاخرة بالحوادث.. وقد تغارين من تفاصيلها.

– لا يهمني أحداث نصف قرن مضت من عمرك.. يهمني ما تبقى من لحظات، حدثني عن واحدة منها..

- لِـمَ؟

- لا أدري.. بل حدثني..

كان اسـمها نادية.. شـعرها مثل ذيل حصان.. كانـت عيناها تبرقان وثغرها كالأقحوان.. أو أجمل.. بريئة مثل طفل.. نقية كسـماء اغتسـلت بالمطر.. حلوة كرطب البصرة.. كلانا لم يتجاوز العشرين.. أكبرها بعامين.. وذات يوم التقينا على شـاطئ النهر.. في جزيرة بعيدة سموها السندباد.. ما زلت أذكر الحالة بالتفصيل.. شـط العرب قد ارتفع ماؤه.. وتعانق مع جسر هول الخشـبي.. حتى غطى الماء مشط قدميك.. والنخل قد انحنى مـن كثرة حمله.. رطب كالذهب الأصفـر.. وثمة أصوات مختلطة لعديد من العصافير والطيور.. فرشت عباءتها السوداء وجلسنا عند الشاطئ.. نحلم بالذي يمكن أن يكون.. نرسـم قصوراً من الأحلام مطرزة بنخيل جزيرة السـندباد.. كان الهواء عليلاً حتى جعلكِ تنعسين.. وفجأة وقف فوق رأسينا شرطيان.. نظرنا إليهما باستغراب.. بينما صرخت نادية بخوف طفولي، وأصرّ الشرطيان على أن يقودانا إلى مركز الشرطة.. وضاعت كل توسلاتنا.. لم أكن أخاف على نفسي بقدر خوفي على نادية.. لم أكن قد أكملت دراستي.. ولم يكن المجتمع يسمح بذلك.. لكن الشرطي أصرّ وضاعت هباءً كل أحلامنا.. حتى العصافير فوق النخلة هربت.. ما عدت أسـمع إلا صوتيهمـا الهادرين وإصرارهما على رَمْيِنا بالسجن.

وسكت.. وظل يتذكر..

قالت السيدة بشوق.. وماذا بعد..؟

ركبنا سـيارة الشرطة.. نادية تبكي نادمـة.. وأنا في حيرة من أمري.. وما الذي سـأقوله.. وما هـو تصرفي.. وفجأة تعلّقـت في ذهني فكرة.. وعرضت عليهما كل ما نملك.. كانت تملك ربع دينار في حقيبتها وديناراً واحداً في جيبي.. كان ذلك كل ما نملك في ذلك اليوم.. وقبِلاها.. وأوقفا السـيارة.. ونزلنا في طريق موحـش.. وأصرّت على أن تتركني وأن تهرع مسرعة إلى بيتها نادمة.. واعتصمت فيه أياماً.. وذهبت كل محاولاتي سدى في إقناعها.. وذات يوم وقفت أراقب موكب زفافها لرجل مجهول لا أدري من أين جاءها..

غـاب وجهها الطفولي عني.. وما عدت أراها حتى في حلمي.. لكني كلما شاهدت صبية بذيل الحصان.. وعيناها تبرقان.. وثغرها كالأقحوان.. بريئة كالطفل.. حلوة كرطب البصرة.. نقية.. خلتها نادية..

– هل ما زلت تحبها..؟

– لا أدري.. مرّ عليها أكثر من ثلاثين عاماً..

– وما زلت تذكرها..؟

– ولكنهـا لم تكبر هـي ذات الصبية الحلوة.. هـي ذات النخلة بظلها وعطر لقاحها.. هي ذات النهر منذ آلاف السنين.. هي ذات الجزيرة التي كانت وعاشـت في نفسي والتي كان اسـمها السندباد.. هي ذات الحلم.. هي ذات الأيام والمغامرات.. والهوس والمشاريع والتسكع.. وكان اسمها نادية.. هي والبصرة صنوان.. عشق واحد. وسفر واحد.. كلاهما الذاكرة التي آمل ألا تموت..

– ما كنت أعلم أنك شاعر..

– سيدتي.. خمسون عاماً من السفر والغربة والاغتراب تجعل الصخر ينطق شعراً ويتجاوز كل الشعراء..

– أوه.. كنت أود أن تفرحني.. لا أن تجعل لحظاتنا تراجيديا..

– آسف سيدتي.. هي تراجيديا الحياة.

وانطلقت بهما السيارة من جديد.. شوارع المدينة النائمة يلفها الظلام.. وتعجز مصابيح الشوارع من أن تبدده.. توقف قرب أحد المطاعم ودعاها للنزول، ولكنها رفضت..

– لا أريد أن يراك أحد معي..

– إذن تخشين أن ينكشف السرّ..

– تلك هي الحياة يا حسين.. أوصلني إلى الفندق..

– هل ستسافرين غداً..؟

– لن أستطيع التأجيل بعد.. لا بد من أن أسافر..

وأطرق حسين برأسه.. وغاص في لجة من الحزن.. وحاولت أن تخفف عنه الوطأة.. توسلت إليه:

– لا تحزن يا حسين.. من أجل آخر ليل يضمنا معاً.

– لماذا تموت الأشياء الجميلة؟

– كل الأشياء تموت لا محالة..

– سـيدتي.. امنحيني في الظلام الهائل شـفا حب عذب كي تنسـيني الآلام.

سيدتي.. عبر النار النازفة.. في صدري كوني فجراً.. قديساً أبيض العصا حتـى أتحمل هجر الأيام.. كـوني قيداً.. مقصلة.. مشـنقة.. كي تقتلي في صدري الغربة.. وتطفئي نار الأعماق..

عيناك هما البحر الواسع سيدتي..

وسكت حسين، وقبل أن يضيف أكملت منشدة:

– وأنت البحار.. يا أقدم مسافر في بحري، أبحر بعيداً عن سفري واحمل عذاباتك وصبرك حتى أكسر قيدي أو تكسر أنت قيدك، أو نلتقي عند قاع البحر، بلا شفتين، بلا جسدين، وبروحين ملؤهما الشوق والحسرة.

وهربت.. فتحت باب سيارته وهربت.. دخلت الفندق.. لم يَرَ وجهها.. ولكنه شعر بها تبكي.. وقادته سيارته مرة أخرى متسكعاً في شوارع المدن النائمة.. وعاد إلى البيت.. على أمل أن تشرق شمس نهار جديد.

اللقـــاء الأخـــير

وأشرقت شمس يوم جديد.. لم يذهب إلى مقر عمله.. أوقف سيارته قرب رصيف الشارع المطل على البحر.. وترجّل ومشى جيئة وذهاباً يذرع الشارع، تفكيره تعطل منذ الصباح.. ثم أسرع فجأة وقاد سيارته.. توقف عند بائعة زهور واشترى باقة ملونة.. وسرعان ما ودع الشارقة وضمته دبي بشوارعها الفسيحة المزدحمة بالسيارات.. أوقف سيارته بموقف خاص.. ودخل باحة الفندق وقد نسي الورد في السيارة.. كانت في انتظاره.. حزن عميق يطوق جفنيها.. ورعب يرتسم على وجهها وقلق واضح..

وتسمّر في مكانه يراقب قلقها.. وقال لها:

- ما الأمر؟

- وأخيراً..

وصمت وأكمل هو:

– لقد قررت السفر..

– نعم بعد أن أجّلته أربع مرات..

– آه لو تؤجلينه أيضاً..

– لا يمكن..

وجلسا إلى حين استكمال دفع الحساب.. نظر إليها طويلاً.. طويلاً جداً.. وسافرت في أعماقه..

قالت:

– إلى أين سفرك؟

– أسافر في أعماقك وصولاً إلى نفسي..

قالت:

– وأنا أتجول في أعماقك وصولاً إلى الإنسان.

– وليتنا نتجول معاً لنصل إلى الوطن.

قالت:

أو تعتقد أننا سنصل مادام الوطن ممزقاً؟

إذن سنظل شطرين.. أنا وأنت ممزقين متباعدين..

وقبل أن تجيب كان عامل الفندق قد نقل الحقائب إلى السيارة.. وطلب منهـا بأدب أن تبدأ رحلتها في العودة.. جلسـت بجانبه بالسـيارة للمرة الأخيرة.. ظلت تعانقه بنظراتها..

طال الصمت والسيارة تقطع الشوارع والزمن والإنسان.. كل شيء قد توقـف في تلك اللحظات.. حتى التفكير والعواطف.. حزن خيم داخل السيارة وكأنها عربة جنائزية تحمل جثتي عاشقين.. تمنى لو تصطدم السيارة فيموتا أو تسـقط في البحـر فيغرقا.. أو.. أو.. وأخـيراً كسرت الصمت وقالت:

– اخترت مطار الشارقة لأن الطائرة ستُقلع بعد ساعتين.

– ساعتين فقط.

– أفضل من لا شيء.

وخيم الصمت من جديد.. وتمتم:

– ساعتين.. سيدتي.. وترحلين..

– لن أنساك..

– سيجبرك الزمن..

– لماذا أنت حزين؟

– هل أنت سعيدة؟

– لا..

– من لا يتألم ويشعر بالسعادة فهو غير قادر على تحسس طعم الحياة.

– ماذا تعني؟

– هل أنت مستعد للموت من أجل حب مثلاً؟

– لا أدري.. لم أجرّب..

– ولكنـي قد وصلت لقناعة ما.. أعتقد أن العالم لم يعد جديراً بالحب الحقيقي.

– هذا ليس عدلاً سيدتي.. ما زال الحب يعيش عند الناس..

وصلت سـيارته إلى مطار الشـارقة دون أن يقيس الزمن أو يتحسس سـاعته.. ومشى إلى جانبها صامتاً.. أكملا معاملات الجواز.. وجلسا في المقهى.. متقاربين بلا كلمات متعانقين بلا قبل.. يخافان الزمن ولا يريدان أن يتحسسـا سرعتـه أو فنـاءه.. حاولت أن تهـوّن عليـه.. حدثته، ظل بلا حراك.. ظنت أن قلبه توقف فجأة.. أو أن الدم تجمّد في عروقه.. وظل فنجانا القهوة مصلوبين على المائدة.. وابتسمت له:

– ماذا لو كنا مراهقين؟

– ومـا الخلاف في ذلك.. الإنسـان هو الإنسـان.. مراهق أو كهل أو عجوز..

وقبل أن يكمل جملته أعلنت المضيفة الأرضية عن موعد إقلاع الطائرة.. ودَعَت الركاب للإسراع في دخول البوابة.. ووقفا.. ثم تشابكت أيديهما.. وسارا معاً كعاشقين.. أو كعروسين.. وصلا إلى البوابة الرئيسية.. ودون إحساس بهذا الحشد الكبير من المسافرين ظلا متقاربين.. وجهاهما في عناق بلا قبل.. وجسداهما جسد واحد رغم افتراقهما.. فجأة أدار وجهه وترك يديها والتفت مسرعاً وأراد أن يهرب.. أمسكت به.. وقالت:

– لماذا تريد أن تهرب؟

– ما اعتدت أن أودع من أحببت..

قالت:

– اكسر هذه القاعدة.. وودعني..

– ولكني لا أملك الكلمات..

قالت:

– أنا أملك القُبل..

وفجأة ضمته إلى صدرها وسط كل هذا الكم الهائل من البشر.. وقبّلته..

وسرعـان ما حرر نفسـه منها وأسرع دون أن يلتفت إلى الخلف.. سـابق السلم الكهربائي عدواً.. وكأنه يهرب.. أحسّ برجليه تهربان.. تهربان.. ودخل السـيارة ومات فيها كل الشعور.. لا يدري كيف تحركت سيارته وإن كانت تحركت فعلاً أم لا.. الشوارع تهرب هي الأخرى..

والسـيارات تتسـابق على جانبيه.. وعلا صوت محركات طائرة ظنها طائرتها.. سدّ أذنيه بكلتا يديه.. صرخ.. ولكن صراخه تلاشى مع صوت الطائرة التي مرت فوقه مُسرعة إلى المجهول وبدأ يردد مقطعاً من قصيدة غنتها له في ليلة مقمرة.. لم يحاول أن يعرف تاريخها.. سمعها تنشد:

– فاهدأ.. لأن الصمت حديث العاشقين.. وأبلغ من كل الأحاديث.. وأروع من كل الحروف والهمسات..

فاهدأ.. فإن الصمت والبحر وعينيك يسكنون ضلوع امرأة محترقة.. لم يبق لها سوى ذكرى شراع مزقته الريح..

أيها القادم من عمق الجنوب.. يا نخلة العمر الصامتة المثمرة..

اهدأ.. فاللوز والنخـل.. يتعانقان في حلمي.. ويكفي أن تكون أنت الحلم والأمل..

فاهدأ.. فإن الصمت كان يجمعنا.. نهران لم يتزاوجا.. في السرّ والعلن.. وانقطع الصدى فجأة.. أراد أن يسترجعه فلعله يسترجع بعضاً من ذكرياته..

فشل وتذكّر كم هي صعبة حالته عندما تقرأ الشعر.. إنها حالة تتأصل فيها الأحزان وتفقده صوابه.. كل الولادات تحزنه.. تمزقه.. والشعر عنده أجمل الولادات.. وفجأة عاد صدى صوتها يرن في أذنه قالت له:

– هل تعلم أننا نعيش اللا واقع الآن؟..

أجاب:

– من أجل الوصول إلى الواقع..

– كيف؟

– أحياناً سيدتي.. اللا واقع يوصلنا إلى معرفة الواقع.. تماماً مثل اللاحقيقة تؤكد لنا صحة الحقيقة وبطلان أي شيء.

– والحب.. هل يمكن أن نكتشفه بنفس المعادلة..

– لا يا سيدتي.. الحب حالة فريدة.. لو تسنّى لنا السيطرة عليها لحكمنا عليها بالموت..

وتلاشى الصوت مرة أخرى.. ومزقه القلق.. وحاول أن يتنزع نفسه مـن حالة اليأس وأن يبدأ يعيش حياتـه رتيبة كما كانت.. وكان قد وصل إلى قلب المدينة، منحته الضجة والازدحام حالة من الانفصام عن أصداء صوتها الذي ظل يعيش معه.. دخل البيت مبكراً على غير عادته.. ونظرت إليـه أم علي شـزراً، ولكنها لم تكلمه.. دخل إلى غرفتـه كمومياء متحركة

واستبدل ملابسه.. ونام على سريره.. أو تظاهر بالنوم.. جاءت أم علي وتطلعت في وجهه المخطوف وتصورت أنه مريض وغطته.. وأحس لأول مرة بأنها مسكينة طيبة القلب.. لكنه لم يستطع أن ينسى سيدة الشعر التي ما إن أغمض عينيه حتى جاءته حلماً.. فتح عينيه ليهرب من الحلم فما عادت سنواته الخمسون تمنحه الأحلام وما عاد بحاجة إلى حلم.. إنه يفتش عن الحقيقة.. يفتش عن نفسه.. يفكر في القرار الذي ينبغي أن يتخذه.. ما الذي سيفعله.. لم يعد السرير قادراً على أن يحتوي جسده الثائر وسرعان ما ترك الفراش وهرب إلى حديقة المنزل.. ونظرت إليه أم علي متعجبة دون أن تتكلم، لكنها أحست بقلقه..

في الحديقة بهره الضوء.. فاختزن منه كثيراً واحتفظ بجزء منه في قرارة نفسه بما يكفيه لكي يطالع الليالي حالكة الظلمة.. وقال في سره:

– إيه سيدتي.. كالضوء أنت.. خزنتُ من وجهك صوراً تساعدني على اقتحام الليالي وحيداً مؤرقاً.

وفكّر حسين مع نفسه.. وتصوّر حاجة الإنسان إلى الوعي الدائم الذي يساعده على التفوق على الطبيعة من أجل أن يحمي نفسه ويتغلب على ضعفه.. الإنسان هذا الحلم الكاذب والحالة المتغيرة السريعة الذوبان ما أقدرها على اكتساب كل الآلام ولفظها.. لماذا الإنسان دائم البحث عما فقده.. حينما يصبح شاباً يحس بالحنين إلى الطفولة، وعندما يبلغ الخمسين

يحلم بصباه، وشيخاً فيلعن الدنيا لأنه عاش ويتمنى بمرارة لو عادت الأيام ليعرف كيف يعيشها.

– أما أنت يا سـيدتي فقد أججت في نفسي كل العواطف.. وندمت.. ندمـت من لقائي بك لا كرهـاً إنما لمزيد من الإعجـاب لا أعرف سره.. وسألت نفسي أي مراهق أنت يا حسين.. ولعنت كل السنين..

ظل حسـين يصارع أحلامـه والواقع المعاش حولـه في كل المناحي.. وصرخ في أعماقه مردداً قولاً قرأه ذات يوم واختزنه في ذاكرته:

فليـسرع كل شيء إلى الزوال.. ولتتغير على وجه السرعة وبأية طريقة حياتنا اللعينة التعيسة.

النهايـات

مرّ يـوم عـلى رحيلها.. جلس قبالة الهاتف علَّ جرسـه يـرن.. يئس من انتظاره وترقّبه.. لم يطلبـه أحد.. رنّ الجرس كثيراً.. وتحدّث كثيرون ولم تكـن من بينهم.. زاد قلقه وقرر أن يحدّثها.. ملأ جيبه بنقود معدنية.. مئة درهم معدني.. وجرّب أن يتصل من أي هاتف عمومي في الشـارع.. جـرّب الهاتف الأول بلا جدوى.. واعتقد أنه عاطل.. وانتقل إلى هاتف آخر في مكان آخر.. وفشل في الحصول على مكالمة.. ثم انتظر ساعة أخرى فلعل هاتفها مشغول، وجرّب من مكان ثالث، ورابع، وخامس، ولم يسمع سـوى صوت مزعج.. توت.. توت.. تـوت.. وانقضى يوم.. ثم آخر.. وثالث.. وحتى اليوم العاشر يجرّب صباحاً.. ثم عصراً.. فمساءً.. والإجابة واحدة.... توت.. توت.

وبـدأ يفـرط بالدراهـم المعدنيـة.. قبل أن يذهـب إلى العمـل تناديه أم علي..

– أبو علي.. هل لديك دراهم معدنية.. أعطِ ابنك عشرين ليشتري دفاتراً وقلماً..

وبلا تردد يعطيه عشرين درهماً.. وفي اليوم الثاني خمسة دراهم لسوسن لتشتري كتاباً.. واليوم الثالث تسعة دراهم لـ علي ليشتري قلماً.. وهكذا كل يوم يدفع بالدراهم المعدنية لأولاده ويقف أمام كابينة الهاتف يجرب الاتصال بسيدة الشعر.. حتى أن كل الأجهزة عاطلة، وأنه لا بد أن يشتكي مصلحة التليفونات.. وذات يوم أيقن أن دراهمه المعدنية قد انتهت.. وانتهى معه أمله الذي كان.. وتبددت كل أحلامه وتصورها أوهاماً.. ولكن صورتها ظلت عالقة في ذهنه.. من الصعب أن يمحوها من خاطره..

في صبيحة اليوم الخامس عشر فتح صندوق بريده.. كانت رسالة أنيقة ملقاة في قعر الصندوق الحديدي.. تسلّمها.. قلّبها بين يديه وأيقن أنها الرسالة المنتظرة.. وتردد في تمزيق غلافها.. ولكنه اضطر إلى فتحها.. كانت قصاصة صغيرة.. تحاول سيدة الشعر أن تجد لها بعضاً من المبررات.. كلمات شكر خالية من الحرارة.. ارتفع الضغط في صدغية.. انفجر.. أراد أن يمزق الكلمات.. نظر إلى داخل الغلاف مرة أخرى وإذا بورقة ثانية فتحها..

إذن هذه الرسالة.. قال في نفسه وبدأ يقرؤها..

ناديتك كل ليلي بلا أمل. فالصدى ضاع في البحر..

عشـتك في حلمـي.. وفي سري.. وفي علني.. ولكني عشـت وهماً.. فالمسافات هي المسافات.. أميال وصحارى وبحار.. وعذارى.. ومواقع وقيود.. وصغاري؟

ها هو البحر عميـق.. والصواري تتكسر، ليتك ذرة رمل في جفوني.. موجة في بحر.. أو جرعة ماء في عذارى، أو ليتني همسة عشق في جنانك أو هواء يتنشق رئتيك إسوره في معصمك.

من أنادي سيدي.. أو من تنادي؟ فكلانا لعنة الآخر.

هل يمكـن ألا تكون أنت.. كما هو أنت..؟ أو هل يمكن ألا أكـون أنا. كما هو أنا؟..

إذا استطعت ألا تكون أنت.. وتنسى كل ما كان وما يكون.. وسنون العمر.. تنساها.. وتنسى أهلها.. فأنا مثلك سأكون.. أرفض البحر وأبحر.. أرفض الدنيا والصحارى وعذارى، وأعيش العمر جارية بين يديك.

أسرع حسين إلى مكتبه.. وطوال الطريق ردد مقاطع من الرسالة التي وصلته.. يحاول أن يفك رموزها.. ويتمعن في كلماتها.. ويبحث عن معانيها.. دخل المكتب وأغلق الباب وبدأ يكتب رسالته الأولى قال فيها:

– فجأة تجيئين كالسنا.. كالضوء.. كالنجمة.. كالبحر.. كالنورس مع العرس..

تجيئين عطراً.. وهمسة.. وسحراً.. وتعيدين كل حساباتي.. وتحركين كل الركود، وتحرقين كل الشموس..

أيها الحلم البعيد القريب.. أبينك وبيني عذارى(*)..؟ وحدودنا البحر.. أيتها السيدة التي أعني.. من الذي يطلب الجفاف.. بحّار ميت.. غرقت صواريه.. وتشنجت أغاني بحارته.. أم تيار حلو.. ما عاد يجيء كلما تجيء النسمة..؟ يبدو أن عذارى والبحر والنخيل.. لن تكون إلا موانعنا.. وأسباب انقطاع رسائلنا.. وأشياء.. وأشياء..

سيدتي.. تصبحين أمنيتي.. وتعلمين أن لا أمنية لي سوى أن أُعفّر وجهي بتراب الوطن أو أدفن فيه..

وتصبحين الوطن.. تصبحين التربة.. الأرض التي أعشق.. فامنحيني فرصة أن أعفر وجهي بك.. أو ادفنيني في سويداء القلب.. وغطي عليَّ بأضلاعك.. لأنبت سنبلة للعاشقين ومحبة للمغتربين.. وبسمة لشفاه الصغار سيدتي.. ادفنيني وامنحيني الحب..

وسرعان ما رمى رسالته في صندوق البريد.. وانتظر أسبوعاً ليصل الرد له مكتوباً هذه المرة في الجريدة التي دأبت أن تنشر بها كل أسبوع.. طالع زاويتها وعرف أن الرسالة موجهة إليه.. أشترى خمس نسخ وبدأ يقرأ:

(*) نبع ماء في مملكة البحرين.

– يا سـيد كل الأزمـان.. يا بحراً.. يا قمراً.. يـا كلكامش هذا الزمن الأسـود.. هل يمكن أن تكسر قيدي..؟ فقيودي.. والسـجان لا يمكن فكهمـا.. أو قهرهـمـا.. بالإبـرة والفنجان، لا بالشعر ولا بالبتر ولا حتى بسحر الجان.

يا سيد كل الأزمان.. يا كلكامش هذا الزمن الأسود ماذا تفعل بامرأة بتروا سـاعدها، كسروا ركبتها.. قطعوا رقبتها.. سـملوا عينيها.. طرقوا رأسها بالمطرقة والسندان..

يا سـيد كل الأزمان.. يا كلكامش هـذا الزمن الأغبر.. هل يمكن أن تنقذ امرأة تُرْجَـم إن قالت أنا عاشقة؟

أم هل تعشـق بالكتمـان.. وإن كتمت.. فبأي زمان ومكان تتناسـخ روحانا عشـقاً.. يذوي جسدانا حباً.. تتنفس رئتانا عطراً.. فبأي زمان.. أم هل يبقى العشق كلمات.. ورسائل وأوراقاً.. هل نصبح فعلاً عشاقاً؟

وجلس حسـين يقرأ القصيدة للمرة الألـف.. وتعجبت أم علي التي كانت تراقبه وهو يكدس الصحف على المنضدة.. وتركته وتشاغلت عنه في حديث هاتفي مع زميلة لها.. وأغلق باب الغرفة.. وأسـدل سـتائرها وبدأ يكتب:

– عبثاً أبحث في أغوار جفنيكِ عن قصيدة.. عبثاً أفتش تحت كل بقاع

الأرض عـن حلمي.. فما عادت رياحك تهـب فوق رأسي، وما عادت الأيام تعـود إلى الوراء.. ولا كل القضايا والهمهـمات تعود.. فما عدت سوى ذكرى.. وأحلام.. وجرح نازف.

وأي الجراح أضمدها؟ سـيدتي.. جراحك؟ أم جراحات الوطن؟ أم جراحات الموانئ التي ما عادت تريد المزيد من الجراحات؟ أم المرافئ التي اختفت بعيداً؟ أم عذابات الليالي السـود حتـى الفجر.. بحثاً عن وجوه الأحبة؟

أأبحث في وجوه الأطفال في بلادي.. عن الضحكة.. وما عادت لهم الضحكة.. ولا لعبة... ولا أيامنا الخضرة.. وأنت.. أنت.. تأتين مع الريح تهيجين كل الآلام.. وتهربين مع الريح.. وتبقى أصابعي فارغة لا تقبض إلا ريحاً.. وذراعي لا يحتوي إلا حلمـاً.. وضلوعي تشتعل لهيبـاً..

أحقاً منى القلب.. سنلتقي بعد نأي.. ونجتمع عند تخوم البحر.. ننسى أغاني الحزن.. نمسح عن مآقينا.. دموع الغربة واليأس..

وغلف رسالته ورماها في صندوق البريد.. وظل ينتظر رسائلها دون جـدوى.. ويفتش كل المجـلات والصحف بحثاً عـن قصيدة تنشرها.. فقد اعتاد أن تكون الرسـائل.. قصائد موجهة لـه.. يقرؤها ويحفظها ثم يقطعها بعناية فائقة ويؤرشفها.. تراكمت الصفحات.. وازدادت القصائد.. وما عادت تكتب له عن طريق البريد فقد سـلكت طريقاً أفضل.. وكان

هو يدرك ذلك تماماً. أن تمزق كل صور حياتها ويمزق كل سنوات عمره.. فلقد التقيا خطأ.. وكان ينبغي أن يلتقيا قبل سنين، وآمن بحاله وباستحالة اللقاء.. وراقب أولاده الستة الذين يملؤون الدار صخباً وحركة وصراخاً.. وتلمّس شعره الأشيب.. وتجاعيد وجهه الذي أكمل نصف قرن من الزمن.. وحاول أن يطوف بكل الشوارع التي ضمته من الشندغة حتى الخان.. وأن يستذكر رائحة عطرها وكلماتها وبعضاً من قصائدها.. وطرح على نفسه أكثر من سؤال لم يستطع أن يجد له إجابه.. وأصيب بغثيان وأحس بحاجة إلى أن يتقيأ.. وحاول أن ينتشل نفسه.. عاد إلى البيت بعد أن نامت عيون أولاده وزوجته أم علي، وجلس في غرفته صامتاً يحتضن الظلام ويحتضنه.. أشعل مصباح منضدته وبدأ يكتب آخر الكلمات..

– سيدتي.. عذراً.. لا أنت تستطيعين أن تكوني أنت.. ولا أنا.. كلانا جاء خطأ إلى الدنيا. وليس بمقدورنا أن نعيد العجلة إلى الوراء.. ولكني أصدقك القول في أنك أججت في نفسي ملايين العواطف والأحاسيس.. وكنت سيدتي وسيدة الشعر.. وفية لكلماتها صابرة..

سيدتي..

سيظل البحر يباعد بين شاطئينا.. وقد لا نجد سفناً تنقلنا.. وأن نموت في البحر غرقاً وبإرادتنا ضرب من الجنون.. ومسألة تبدو غير واقعية.. لقد آمنت أنني بحّار عجوز تكسرت صواريه وغرقت سفنه..

سيدتي

ربما سنلتقي.. لا أستطيع أن أحدد الزمان ولا المكان.. ولكني أعتقد أننا لا بد أن نلتقي ذات يوم.. ربما في تويج زهرة برية.. أوفي روح عصفور أو حتى في رحم امرأة.. وأن لقاءنا لا بد أن يعود كما كان عاصفاً..

الشارقة – سبتمبر 1986

تنـويــه

كُتبت هذه الرواية ما بين عام 1985 ـ 1986، ولم تنشر بكتاب، إلا أنها جاءت خطأً ضمن الأعمال القصصية الكاملة التي صدرت عن دار المدى عام 2000.

وهذه هي المرة الأولى التي تصدر منفصلة في كتاب، لذا اعتبرتها الطبعة الأولى..

المؤلف في سطور

ـ عبد الإله عبد القادر، عراقي مقيم في الإمارات.

ـ كاتب ومخرج مسرحي.

ـ من الروايات:

1 ـ رحيل النوارس، دار الحوار، سوريا 1992.

2 ـ أوراق العاشق الأخيرة، دار شرقيات، القاهرة، مصر 2003.

3 ـ الجهجهون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر 2005.

4 ـ سوالف، دار العين، القاهرة، مصر 2016.

5 ـ الديلى فرانس كافيه، دار العين، القاهرة، مصر 2017.

ـ من القصص القصيرة والمسرحيات:

1 ـ هنادي.. النخلة والسنونو (ط2) دار الحوار، سوريا 1989.

2 ـ هموم علوان الأحدب، دار الحوار، سوريا 1989.

3 ـ مرثية لكلكامش، دار الحوار، سوريا 1991.

4 ـ الجنرال، دار الحوار، سوريا 1994.

5 ـ طلب لجوء، دار شرقيات، القاهرة، مصر 1996.

6 ـ اليانكي، دار شرقيات، القاهرة، مصر 1999.
7 ـ الأعمال القصصية، مجلد1، مجلد 2، دار المدى، دمشق، سوريا 2000.
8 ـ بوابة الحرية.. بوابة الموت، دار المدى، دمشق، سوريا 2002.
9 ـ نجمة ماركيز، دار العين، القاهرة، مصر 2006.
10 ـ أحزان عازف السكسفون، دار العين، القاهرة، مصر 2007.
11 ـ مدينة بلا ألوان، دار العين، القاهرة، مصر 2008.
12 ـ ساحل الكوس، دار العين، القاهرة، مصر 2009.
13 ـ رسالة الفرطوسي، دار العين، القاهرة، مصر 2012.
14 ـ عين كاوة، دار العين، القاهرة، مصر 2015.
15 ـ الطيور "مسرحية للأطفال"، دار الحوار ـ سوريا 1992.
16 ـ القنديل الصغير "مسرحية للأطفال"، اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات 2004.

ـ من الدراسات:

1 ـ تاريخ الحركة المسرحية في الإمارات، 1960 ـ 1985، ط1 "دار الفارابي" بيروت 1986، وط2 اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، الشارقة 2007.
2 ـ مسرح الشارقة الوطني بين عقدين، مسرح الشارقة الوطني 1995.
3 ـ صورة المرأة في الكتابات المسرحية في دولة الإمارات العربية المتحدة، اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات 2004.

4 ـ المسرح في الإمارات "المرجعيات وتجليات الواقع"، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة 2004.

5 ـ توفيق الحكيم "الرائد المتمرد"، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، 2010.

6 ـ المسرح في الإمارات (ستون عامًا من العطاء)، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، 2011.

7 ـ قراءة الطاولة، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2012.

8 ـ المسرح المدرسي، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2015.

ـ بعض الدراسات عن أعماله:

1 ـ مرايا السرد وجماليات الخطاب القصصي، تأليف أ.د. صابر عبيد، وسوسن البياتي، دار العين، القاهرة، مصر، 2008.

2 ـ القصة القصيرة عند عبد الإله عبد القادر، تأليف سليمان سالم الفرعين، فاس، المغرب 2005.

3 ـ البحث عن وطن، دراسات وتأملات في قصص عبد الإله عبد القادر، إعداد وتنسيق د. عبد الله بنصر العلوي، فاس، المغرب 2006.

ـ البريد الإلكتروني:

abdulelah_q@hotmail.com